الفصل الثالث

الواقع الاجتماعى للعالم الإسلامى

● **النظام الاجتماعى فى الإسلام:**

للإسلام نظامه الاجتماعى الذى فيه:

الفرد المسلم: ذكرًا كان أو أنثى، ملتزمًا بأحكام الإسلام، مقتديا برسول الله ﷺ، مؤديا الواجب قبل أن يطالب بالحق، لأن الإسلام يعوده ويعلمه ذلك: ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً** ﴾ [النحل: ٩٧] ولذلك كان أداء الواجب شرطًا للمطالبة بالحق.

وهو ما يربى فى الفرد المسلم «الإيجابية» ويزيده إيجابية شعوره بأنه مسئول أيًّا كان موقعه فى المجتمع «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالرجل راع فى بيته وهو مسئول عن رعيته، والمرأة راعية وهى مسئولة عن رعيتها».

وهو فى النهاية عابد لله سبحانه، يتقدم فى قلبه حب الله ورسوله وجهاد فى سبيله على كل الدنيا، وترجح فى نفسه الآخرة بنعيمها على الدنيا مهما كان زخرفها ولذا فحرصه على الدنيا لا يجاوز يده إلى قلبه ﴿ **وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا** ﴾ [القصص: ٧٧] هذا هو الفرد المسلم، لبنة الأسرة والمجتمع.

أما الأسرة المسلمة: فإنها تقوم على عمودين، رجل وامرأة كلاهما يبحث أول ما يبحث عن الإسلام فى صاحبه.

«إذا جاءكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه، إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير».

«تنكح المرأة لأربع.... فاظفر بذات الدين تربت يداك».

وهى تقوم بعد ذلك على السكن، والمودة والرحمة. يكون ذلك بين الزوجين، ويشع فيملأ البيت كله سكنا، ومودة ورحمة، يحكم الإسلام علاقاتهما، زواجا واستمرارا وإنهاء أو طلاقا.

ويحكم العلاقات بين الآباء والأبناء، فيوجب على الآباء العطف وحسن الرعاية وتعويدهم الصلاة ثم ضربهم عليها، والتفرقة بين الذكور والإناث فى المضجع.. إلخ، ويوجب على الأبناء الاحسان إلى الآباء: ﴿ **فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا** ﴾ [الإسراء: ٢٣]، ﴿ **وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا** ﴾ [لقمان: ١٥]. ثم يحكم العلاقات بين الأخوة والأخوات وبين سائر ذوى الرحم، ويوصى بالرحم خيرًا: «الرحم قطعة منى، من وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته»، وينهى نهيا جازمًا: ﴿ **فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ** ﴾ [محمد: ٢٢]، «لا يدخل الجنة قاطع رحم».

وينظم فى النهاية الأحكام المالية، كالميراث والوصية، بما يحقق عدالة عجزت عن البلوغ إليها كل الأنظمة، فلا تزال بريطانيا تعطى الإرث للابن الأكبر، ولا تزال الولايات المتحدة تطلق يد المورث فى تركته فيوصى بها إلى عشيقته، أو كلبه، ويحرم أبناءه وأسرته.

أما المجتمع المسلم..

فهو مجموع هؤلاء الأفراد، ومجموع هؤلاء الأسر، يقوم كما يقومون على الالتزام وليس مجرد الانتماء.

ويعرف التكافل بين أفراده حتى ليصير مثله: «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».

ويتحقق التكافل اجتماعيا كما يتحقق اقتصاديا، وأخيرًا يتحقق سياسيا متمثلاً فى قوله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ** ﴾ [الشورى: ٣٩]، ويشرحه قول رسول الله ﷺ: «انصر أخاك ظالما أو مظلوما»، قالوا: ننصره

يا رسول الله مظلوما فكيف ننصره ظالما؟ قال: «تحجزه -أو تقصره - عن ظلمه».

وهكذا يتحقق تكافل سياسى، يقصر فيه الظالم عن ظلمه، وينتصر فيه للمظلوم من ظالمه، وهو ما حاول العرب الاقتراب منه قبل الإسلام بحلف الفضول الذى قال فيه الرسول ﷺ: أنه لو عرض عليه بعد البعثة لقبله.

ونماذج الفرد المسلم رجال ونساء، والأسرة المسلمة، والمجتمع المسلم، نماذج فريدة فى التاريخ.

نماذج للفرد المسلم الذى جاهد فى ميدان القتال وضرب أروع مثل للتضحية والفداء، والذى جاهد بكلمة الحق بقولها عند من يخافه أو يرجوه.

والمرأة المسلمة التى شاركت جهاداً فى سبيل الله، تضميدا للجروح أو حثا على الجهاد وأحيانا إذا اقتضى الأمر تلثمت وقاتلت كما يقاتل الرجال. وجهادا فى إقامة البيت المسلم والمجتمع المسلم محققة قول رسول الله ﷺ: «حسن تبعل المرأة لزوجها يعدل الجهاد فى سبيل الله».

ونماذج الأسرة المسلمة المترابطة المتعاونة التى يحترم فيها الصغير الكبير، ويعطف فيها الكبير على الصغير، والتى تتواصى بالصبر، والتى تخرج أجيالا من الأبطال، كل هذه نماذج متكررة على مدى التاريخ الإسلامى، ونماذج المجتمع المسلم الذى يحمل الحق ويحمى الحق متكررة كذلك، حتى ليقرر المنصفون أن الانحراف وإن أصاب الإمارة فى بعض الأحيان - أو أكثر الأحيان - فقد بقيت «العصمة» للأمة لا الإمام، مصداقا لقول رسول الله ﷺ: «لا تجتمع أمتى على ضلالة».

وكان ذلك سرًّا من أسرار خلود هذه الشريعة باعتبار الأمة المسلمة هى وعاؤها.

ترى ماذا بقى من هذه الأحكام؟

وماذا بقى من هذه النماذج؟

لا شك أن الواقع أليم.

فالفرد المسلم اليوم فى الأغلب الأعم لا يعرف الالتزام بأحكام الإسلام، يفتخر – إلا من رحم ربى – بجهله بالإسلام ما دام يعرف الكلمات والأنظمة الغربية، وينفلت من أحكام الإسلام عقيدة وخلقا وتعبدا فوق تفلته من أحكام المعاملات.

– والمرأة المسلمة فى الأغلب الأعم غزاها الفكر الصليبى أو الصهيونى، قصدا إلى إخراجها من فضائلها، وفى مقدمتها: الستر والعفة والشرف، فتعرض ما صانه الله بغير خجل ولا حياء، وتعرض نفسها بالتصرف أو النظرة أو البسمة مبتذلة رخيصة، وتهجر بيتها وأولادها ووظيفتها أو رسالتها الأصيلة: زوجا وأماً، وهى تعلم أنها أن أخلصت زوجة فهى كنز كبير أو هى بتعبير الحديث الشريف: خير ما يكنز المرء، وإن أخلصت أماً: فالجنة تحت أقدامها، وهى مدرسة أو جامعة يتخرج فيها الجيل – والأسرة المسلمة دب فيها الوهن. بعد ما بعدت عن أحكام الإسلام فالعلاقات بين الزوجين متوترة وعلى الأحسن فاترة. والعلاقات بين أفراد الأسرة الآخرين تفككت تقليدا للغرب الصليبى، ومظاهر قطع الرحم والخصام تزيد عن مظاهر الوئام والسلام، ومظاهر التظالم بين أفراد الأسرة الواحدة والتشاحن على الميراث وعلى غيره من أغراض الحياة الدنيا كثيرة وكبيرة وعميقة – والمجتمع المسلم لم يعد جسداً واحداً: تقطعت أوصاله وأجزاؤه على مستوى الأمة الإسلامية، فلم تعد واحدة، وتقطعت أوصاله وأجزاؤه داخل البلد الواحد، إلى أحزاب وفرق وعصبيات وساد الفكر الصليبى أو الصهيونى، أو ما يريده هذا وذاك أن يسود، وانتفى فيه التكافل الاجتماعى والاقتصادى والسياسى. وانهار فيه الدين. انهار عقيدة بين تفريط الكافرين والفاجرين والعاصين، وإفراط المسرفين الذين ارتدوا إلى النقيض الآخر.

وانهار خلقا بترك الصدق الأمانة والعفة، وعاون على ذلك إعلام فاجر لا يرعى الله ولا الأخلاق ولا القيم، ويحقق للصهيونية والصليبية كل ما تبغيه، عقيدة وخلقا وسلوكا. كما ساعد على ذلك تعليم تفلت أو يتفلت من قيم الإسلام، ليعلى قيما غير إسلامية، وليقر مناهج غير إسلامية فى مجال الطبيعيات والعلوم الإنسانية والاجتماعية، وليزرى عن عمد أو عن جهل بالدين ورجاله وعلمائه فيزرى بالتالى بقيمه وأحكامه.

وفى النهاية انهارت أحكام الإسلام، فشاع الزنا وساد الربا وفشى الظلم، وتعارف الناس على المنكر، وتناهوا عن المعروف، وتعاونوا على الإثم والعدوان وتعلق الناس بالصنفين اللذين ذكرهما الرسول ﷺ: الأمراء والعلماء، فإذا بالأولين أول من دب إليهم الفساد، وإذا بالآخرين آخر من دب فيهم الفساد.

كل ذلك إلا ما رحم ربى.

وإنما ترحمون بضعفائكم، ولولا شيوخ ركع وأطفال رضع وبهائم رتع لحل بنا العذاب.

* * *

obeikandl.com